صفحة من تراثنا الحي

« رصد الإحساس بالتفوق الحضاري ،
وخطره في رد الغزو الصليبي ، في كتاب
الاعتبار لأسامة بن منقذ »

— ١ —

بنو منقذ من الكنانية (من مضر) ، أسرة كبيرة أقطعها صالح بن مرداس ، الذي ملك الأمر في حلب بعد الحمدانيين ، إقطاعاً في جوار قلعة شيزر الأثرية ، إلى شمالي حماة ، على ضفة العاصي الغربية ، في موقع خطير حصين يحكم وادي العاصي ، ويسيطر على الطريق إلى سورية الداخلية ، فتوسع بعض أمرائهم فضم إليه أرضين أخرى ، وبنى له حصناً أصبح له أيام الحروب الصليبية أهمية كبيرة لموقعه الخطير وحصانته وقربه من مدينة حماة ومراكز الصليبيين ، ثم صار الأمر في الإمارة الصغيرة إلى الأمير (مجد الدين مرشد) فتنازل عنه لأخيه ، وانصرف إلى التعبد والجهاد ضد الإفرنج الذين بدؤوا يغيرون على الشام منذ سنة ٤٩٠ هـ .

وكان لمجد الدين هذا ولد اسمه أسامة ، وفتح عينيه على الغزو والحرب ، فشب على الفروسية الإسلامية وأخلاقها ، وشارك في دفع المغيرين على شيزر من الأعراب والأسماعيلية والروم والإفرنج . ثم أحسّ أن عمه الأمير يخشاه ، فرحل إلى دمشق سنة ٥٣٢ ، وكان السلاجقة يحكمونها ايام سيطرة المملوك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

السلجوقي معين الدين أُنُر ، فأقام فيها ثماني سنين خرج بعدها سنة ٥٤٠ هـ إلى مصر ، وكانت الخلافة الفاطمية تعاني سكرات الموت فيها ، فأقام فيها تسع سنين شهد فيها بعض مآسيها ، ثم غادرها سنة ٥٤٩ إلى حصن كَيْفا على دِجلة ، فعكف على الكتابة والتأليف ، حتى استدعاه صلاح الدين الأيوبي إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ ، وكان استولى عليها من النوريين ، فأقطعه ضيعةً في أطراف المعرة وأملاكاً في دمشق ، (وكان مرهف بن أسامة من جلساء صلاح الدين ، ولعله هو الذي طلب من صلاح الدين أن يدعو أباه إلى دمشق) ، وأخذ يستشيره في أموره ويكتب إليه بأخباره حين كان يخرج إلى الجهاد ضد الإفرنج ، وكان أسامة طعن في السن فبدأ يتجاوز الثمانين . وظلّ في دمشق حتى مات سنة ٥٨٤ هـ ، بعد فتح بيت المقدس بعام واحد ، ودفن في سفح قاسيون .

على أنه قبل أن يموت عنّ له أن يسترجع صوراً من ماضيه الحافل بالفتوة والمغامرة ، ويستخلص منها العبر . فهكذا وصل إلينا من كتبه (كتاب الاعتبار) الذي نقف عنده اليوم ، نتملّى منه بعض صور المقاومة التي أبديناها أيام حروب الإفرنج .

ولم يكن يخطر لأسامة على الأغلب أنه ، وهو يسترجع ماضيه الرائع ، يكتب سيرة ذاتية تكتمل لها من صفات هذا الفن الأمانة والصدق والقرب من الحياة الجارية ونقلها إياها بألفاظها ولحمها ودمها ، ودقة الملاحظة ، والسذاجة الفنية الآسرة ، والقدرة على استحضار الواقعة ، والبراعة في تصويرها تصويراً حيًّا تتمثل معه في خيال القارئ وتشخص وتتحرك .

ولم يكن يخطر له على الأغلب أن سيرته الذاتية هذه التي أرادها هو للعبرة والعظة وحدهما ، وكتبها في غير احتفال ، ستدخل أدبنا العربي وتاريخه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وتاريخ لغته وتاريخنا وتاريخ الإنسانية ، فتكون فيها أثراً فنياً قلّ نظيره ، ووثيقة لغة وتاريخ وحضارة لها خطرها .

وقد شخّص لنا أسامة في الكتاب فارساً عربياً مسلماً يحفظ تقاليد الفروسية العربية الإسلامية ويغار عليها ، بصيراً بأحوال المعارك ، قادراً على فهم ملابساتها في بيئتها وأرضها وزمانها ، وعلى تحمل تبعاتها ، وفياً لقومه ودينه ، عميق الإحساس بالروابط التي تشدّه إليها وتضعه في مواقع الدفاع عنها ، مزهواً بها زهواً لا حدّ له ، عاقلاً جريئاً أنيساً متواضعاً في نفسه ، مرحاً صدوقاً .

واجتمعت لنا في الكتاب تفصيلات كثيرة في تاريخ حياته ، أغفل بعضها الذين ترجموا له وعرفوه . فقد نشأ في بيت مجد وفروسية ، في بقعة ينشأ رجالها على الخشونة والحرب والقتال والإغارة ، في زمن وقعت فيه أعتى معارك التاريخ بين المسلمين وأعدائهم من الإفرنج . وجمع له أبوه من الأساتذة من تلقى على أيديهم ثقافة عصره في النحو والحديث والقرآن والأدب والشعر فوعى قدراً صالحاً منها ، وتفتحت مواهبه الفنية فقال الشعر ، وتهيأ له أن يضع المصنفات والتآليف من بعد . فهذا الذي هيأه لأن يصف حياته وعصره وتجاربه وصفاً مثيراً ، في سيرته الذاتية .

وقد جاب أرض الإسلام أو معظمها ، ودخل مملكة بيت المقدس أيام الهُدَن مع المغيرين ، وحج إلى مكة ، وعاشر نور الدين بن زنكي ، وصاحب بعض خلفاء الفاطميين ووزرائهم في مصر . وعرف بعض رجال النورية (نسبة إلى نور الدين بن زنكي) ، ومماليكها وبعض ملوك الفرنجة المغيرين ، وجالس صلاح الدين ، وصاد الوحوش الكاسرة التي كانت ترتع في بعض غابات الشام وأحراجه آنذاك .

★ ★ ★

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا هو الرجل ، فلننظر نظرة في كتابه (كتاب الاعتبار) ، لنلمس قوة الروح التي كان آباؤنا يصدرون عنها في صد الغزاة الإفرنج ، ونقع على أمضى أسلحتهم في ذلك المعترك الرهيب الذي خاضوه ، إحساسهم بشخصيتهم الحضارية الأصيلة الذي جمعهم على اختلاف الأصول والمنابت ، ووقفهم من الغزو والغزاة في موقف المؤمن بالنصر القادر على صنع أسبابه ، وعلى امتداد المعركة الطويلة ، وعلى ما عانوا فيها من تمزق الشمل وتفتت القيادة وتخاذلها ، في بعض مراحل الطريق ، قبل أن يشغل الساحة البطلُ الذي تهيأت له الظروف التي توجب ظهوره في ليالي المحنة الحالكة .

— ٢ —

يقول أسامة : « سبحان الخالق البارىء ، وإذا خبر الإنسان أمور الافرنج سبّح الله تعالى وقدّسه ، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل » .

فهذا مبلغ الافرنج في نفسه : بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير . ذلك أننا في القرن الخامس والسادس ما يزال إرثنا الحضاري الضخم الذي ورثناه عن القرون السابقة القريبة يفعل فينا ، ويُشعرنا بالقوة والتفوق والقدرة ، وما تزال قيم هذا الإرث الحضاري الذي بيناه بالصبر والمفاداة والإيمان ، والغيرة على السمعة والشرف ، حية لم تمت في أنفسنا ، فقد كنا ما نزال من ركب الإنسانية في المقدمة على ما حلّ بنا من نكبات التمزق ، وضعف القيادة ، وتشتت الأهواء ، والانغماس في ترف الحضارة ومفاسدها .

فلهذا كان أسامة يشعر أنه من قوم يعطون المغيرين ويحضرونهم ، فهم من فوق ، والمغيرون من أسفل . يقول : « ومن الافرنج قوم تبلّدوا (أي سكنوا بلاد المسلمين) وعاشروا المسلمين ، فهم أصلح من القريبي العهد ببلادهم ، ولكنهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شاذ لا يقاس عليه ، فمن ذلك أنني نفّذت صاحباً إلى أنطاكية في شغل ، وكان بها الرئيس تادُرُس بن الصفّي Theodoros Sophianos (كانوا يعرّبون الأسماء كما ترون تعريب القوي الذي يفرض عليها منطقه في اللفظ والصياغة ، فهذا مظهر آخر من مظاهر الإحساس بالقوة الحضارية . ونحن نرى أن المعركة القائمة الآن فينا ، في ميدان التعريب ، تتصل بموقفنا الحضاري الضعيف اتصالاً أساسياً) وبيني وبينه صداقة ، وهو نافذ الحكم في أنطاكيّة . فقال لصاحبي يوماً : قد دعاني صديق لي من الافرنج ، تجيء معي حتى ترى زيّهم ؟ قال : فمضيت معه ، فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العُتُق الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج ، وقد اعتفى من الديوان والخدمة ، وله بأنطاكيّة مِلْك يعيش منه ، فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة . ورآني متوقفاً عن الأكل ، فقال : كل طيّب النفس ، فأنا ما آكل من طعـــام الافرنج ولي طبّاخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن ، ولا يدخل داري لحم خنزير . فأكلت وأنا محترز وانصرفنا ، فأنا بعد مجتاز في السوق ، وامرأة إفرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم ، وما أدري ما تقول ؛ فاجتمع عليّ خلق من الإفرنج ، فأيقنت بالهلاك . وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرآني ، فجاء فقال لتلك المرأة : مالك ولهذا المسلم ؟ قالت : هذا قتل أخي عرس (Hurso) (وكان هذا عرس فارساً بأفامية قتله بعض جند حماة) فصاح عليها وقال : هذا رجل بُرجاسي (أي تاجر) Bourgeoisie لا يقاتل ولا يحضر القتال ، وصاح على أولئك المجتمعين فتفرقوا وأخذ بيدي ومضى . فكان تأثير تلك المؤاكلة خلاصي من القتل » .

فالمغيرون أنفسهم يشهدون بسلامة إحساسنا بتفوقنا الحضاري آنذاك . فهذا مغير يقتدي بنا ويقول في بني جنسه : « فأنا ما آكل من طعام الافرنج ، ولي طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن ، ولا يدخل داري لحم خنزير » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومثل ذلك ما رووا عن بودوان (بغدوين) الذي توّج على مملكة بيت المقدس ، بعد مقتل أخيه جود فروا (كندُفرى) . فقد لبس لباس ملوك الشرق ، وأرسل لحيته ، وأخذ يتناول طعامه على الأرض .

★ ★ ★

وسخر أسامة في كتابه من الإفرنج وحكمهم . يقول : « وشهدت يوماً بنابُلُس وقد أحضروا اثنين للمبارزة . وكان سبب ذلك أن حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابُلُس فاتهموا بها رجلاً من الفلاحين . وقالوا : هو دلّ الحرامية على الضيعة . فنفّذ الملك فقبض أولاده . فعاد إليه وقال : أنصفني . أنا أبارز الذي قال عني أني دللت الحرامية على القرية . فقال الملك لصاحب القرية المقطع (صاحب الإقطاع) : أحضر من يبارزه . فمضى إلى قريته وفيها رجل حداد ، فأخذه وقال له : تبارز ، إشفاقاً من المقطع على فلاحيه لا يُقتل واحد فتخرب فلاحته . فشاهدت هذا الحداد وهو شاب قوي إلا أنه قد انقطع ، يمشي ويجلس يطلب ما يشربه ، وذلك الآخر الذي طلب البراز شيخ إلا أنه قوي النفس يزجر وهو غير محتفل بالمبارزة . فجاء البسكند Viscount وهو شِحْنة البلد (الشِحنة : الشُرَط ورجال الضابطة . شحَن : طرد ، وأبعد) فأعطى كل واحد منهما العصا والتُرس ، وجعل الناس حولهم حلْقة . والتقيا فكان الشيخ يَلْزّ ذلك الحداد ، وهو يتأخر حتى يلجئه لهم الحلقة ، ثم يعود إلى الوسَط . وقد تضاربا حتى بقيا كعمود الدم . فطال الأمر بينهما والبسكند يستعجلهما وهو يقول بالعجلة . ونفع الحداد إدمانه بضرب المطرقة . وأعيى ذلك الشيخ ، فضربه الحداد ، فوقع ، ووقعت عصاه تحت ظهره . فبرك عليه الحداد يداخل أصابعه في عينيه ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه . ثم قام عنه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وضرب رأسه بالعصا حتى قتله . فطرحوا في رقبته في الوقت حبلاً وجروه شنقوه ... » .

يقول أسامة : « وهذا من جملة فقههم وحكمهم لعنهم الله » . فأي سخرية بهذا القضاء العجيب ؟ وأي إحساس عميق بقسوة المغيرين ووحشيتهم وموت الإنسان المتحضر فيهم ؟ فهذا الذي بدا منهم على الصعيد الحربي من القتل والإحراق وإغراق المدن بالدم ، على حين كنا على الصعيد نفسه ممثّلين في صلاح الدين نغفر ونحقن الدماء ، ونعف عن شهوة الانتقام .

★ ★ ★

وسخر أسامة من علمهم أيضاً ، فعرض مشاهد من طِبِّهم لها صلة بما وصف من قسوة قلوبهم وبداوة طباعهم . يقول : « من عجيب طبّهم أن صاحب المُنَيْطِرة (في شمالي لبنان) كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه . فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت . فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له ما أسرع ما داويت المرضى ! قال أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دُمَّلة ، وامرأة قد لحقها نُشاف (كلمة معربة عن الفارسية بمعنى البله) . فعملت للفارس لبيخة ، ففتحت الدملة وصلُحت . وحميت المرأة ورطّبت مزاجها . فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم هذا ما يعرف شيء يداويهم . وقال للفارس أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال أعيش برجلٍ واحدة . قال أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً (كذا) ، فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر ، فحطّ ساقه على قُرْمة خشب وقال للفارس اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها . فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة فقال هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها ، فحلقوه . وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فزاد بها النُشاف . فقال الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ الموس وشق رأسها صليباً وسلخ وسَطه حتى ظهر عظم الرأس وحكّه بالملح ، فماتت في وقتها . فقلت لهم بقي لكم إليّ حاجة ؟ قالوا لا ! فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه » .

وقد جمع أسامة إلى هذه الصور صوراً أخرى طيبة ذكرهم فيها بالخير . على أن هذا يوثّق قوله ، دون أن يذهب بحقيقة شعوره بالتفوق الحضاري .

★ ★ ★

ويقول يصف جفاء طبائعهم : فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين قد تبلّدوا وعاشروا المسلمين . فمن جفاء أخلاقهم ـ قبحهم الله ـ أنني كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى وفي جانبه مسجد صغير قد جعله الإفرنج كنيسة . فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية (من الفرسان وقد جعلوا طرفاً من المسجد الأقصى سكناً لهم) وهم أصدقائي ، يُخلون لي ذلك المسجد الصغير أصلّي فيه . فدخلته يوماً فكبّرت ووقفت في الصلاة . فهجم عليّ واحد من الإفرنج مسكني ورد وجهي إلى الشرق وقال كذا صلِّ ، فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عني . وعدت أنا إلى الصلاة . فاغتفلهم وعاد هجم عليّ ذلك بعينه ورد وجهي إلى الشرق وقال كذا صلِّ ، فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه ، واعتذروا إليّ وقالوا هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج في هذه الأيام ، وما رأى من يصلّي إلى غير الشرق . فقلت حسبي من الصلاة » .

★ ★ ★

شبكة الألوكة
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ونقل أسامة في كتابه صورتين سخر فيها من غيرتهم على أعراضهم . يقول « وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة . يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طوّلت عليه خلاّها مع المتحدث ومضى » .

ثم يحكي حكاية رجل « جاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش . فقال له أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي ؟ قال كنت تعبان دخلت أستريح . قال فكيف دخلت إلى فراشي ؟ قال وجدت فراشاً مفروشاً نِمت فيه . قال والمرأة نائمة معك ؟ قال الفراش لها كنت أقدر أمنعها من فراشها . قال وحق ديني ! إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت ! » .

يقول أسامة : « فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته ، فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم ، ما فيهم غيرة ولا نخوة ، وفيهم الشجاعة العظيمة . وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة » .

إن الذين يقرؤون أخبار الحروب الصليبية يذكرون الفساد الخلقي الذي استشرى في المحاربين من الإفرنج ، لما يصحب الحروب عادة من انفلات من قيود المجتمع وضوابطه وآدابه الخيّرة ، وميل إلى إغراق النفس الشقية في اللذائذ الحسية المنيفة ، ولما قع في هذه الحروب بصورة خاصة من اختلاط الجنسين اختلاطاً مشهوراً ذكره المؤرخون ، ووصف العماد الأصفهاني في (الفتح القُسّي) مشاهد معبّرة منه فقد كان يؤتى للمحاربين بمئات النسوة من الغرب ، ممن وهبن أنفسهم « لجنود الرب الأتقياء » !

على أن الأمر انتهى بهؤلاء المحاربين إلى فقد الغيرة على نحوٍ لا يجد له أسامة تعليلاً غير ضياع النخوة . يقول : « دخلت الحمام بمدينة صور ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فجلست في خَلْوة فيها . فقال لي بعض غلماني في الحمّام معنا امرأة ! فلما خرجتُ جلست على المصاطب وإذا التي كانت في الحمام ، قد خرجت وهي مقابلي ، قد لبست ثيابها وهي واقفة مع أبيها ولم أتحقق أنها امرأة . فقلت لواحد من أصحابي بالله أبصر هذه امرأة هي ؟ وأنا أقصد أن يسأل عنها . فمضى ، وأنا أراه ، رفع ذيلها وطلّع فيها ، فالتفت إليّ أبوها وقال هذه ابنتي ، ماتت أمها ومالها من يغسل رأسها ، فأدخلتها معي الحمّام غسلت رأسها . قلت جيد ما عملت ، هذا لك فيه ثواب » .

★ ★ ★

هذا إذن مبلغ الغزاة في أعين آبائنا آنذاك : يقبلون على صد الغزو وقد تميزت لهم شخصيتهم الحضارية ، وشخصت لهم قيمها الفكرية والخلقية والعلمية ، فنجتاهم ذلك مما نعاني نحن اليوم من إحساس حاد بالتخلف والنقص يَشْلُ قُوانا ويُفقدنا ثقتنا بأنفسنا ، فما ندري في أي طريق نسير ؟ وحول أي راية نلتف ؟ والعدو المتفوق المعتدّ يعرف من أمر أنفسنا أكثر مما نعرف نحن ، فهو يرضينا ويبسطنا ويقربنا ويبعدنا ، ويلبسنا ويخلعنا ، ويرمي عن يميننا حجراً فنهرع مبهوري الأنفاس نترامى عليه نحسب أن العدو تحته وهو يطلّ علينا من فوق ، من قمرته العجيبة ، يضحك ملء الشدقين . نصرف له بأسناننا ونلوّح بقبضاتنا ونحن ندعو الله في أنفسنا أن يصرفه عنا ، فما لنا به طاقة !

فأما هم ، آباؤنا منذ ثمانية قرون ، فقد كانوا قادرين على أن يجتازوا في أسرع وقت مرحلة التشتت التي وقعوا فيها . ثم أقبلوا على الحرب بأنفسهم كلها ، وبأخلاق الفروسية وتقاليدها التي ما تزال حيّة فيهم . وإنْ في كتاب أسامة مشاهد رائعة من ثباتهم وتدافعهم على الفداء وشغفهم بالمغامرة وإيمانهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بقدرتهم على انتزاع النصر ، وتماسكهم في ليالي النكبات ، مما يعود كله إلى وحدة الفكر ، وإلى إحساسهم العميق بالتفوق الحضاري الذي ينمي فيهم الثقة والإيمان ورباطة الجأش .

لقد هاجم عسكر الإفرنج يوماً شيزر « وكان خرج من شيزر ، كما يقول أسامة ، في ذلك اليوم راجل كثير . فحمل عليهم الفرنج فما زعزعوهم . فحرد دنكري (طَنْكري) وقال (لفرسانه) : أنتم فرساني ، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم (يريد : عطاء الجند) ، وهؤلاء سرجنت (Sergeant) (يعني رَجّالة) ما تقدرون تقلعونهم من موضعهم ! قالوا : إنما خوفنا على الخيل ، وإلا دُسناهم وطعنّاهم . قال : الخيل لي ، من قُتل حصانه أخلفته عليه . فحملوا على الناس عدة حملات ، فقُتل منهم سبعون حصاناً وما قدَروا يزحزحونهم عن مواقفهم » .

ولم تقتصر الشجاعة على الرجال . فقد كان في نساء المسلمين مثل بُرَيكة الأمَة العجوز التي وقفت على النهر تسقي الناس في ذلك اليوم « والشيطانة ـ كما يقول أسامة ـ لا يروعها ذلك الأمر العظيم » .

وربما تقدمت المرأة تغسل عار الخيانة . فقد كان أحد المسلمين التحق بخدمة « تيوفيل الإفرنجي صاحب كَفْرطاب . فكان ينهض بالإفرنج ـ كما يقول أسامة ـ إلى المسلمين يغنمهم ، ويبالغ في أذى المسلمين ، وأخْذ مالهم ، وسفك دمهم ، حتى قطع سبل المسافرين . وله امرأة معه بكَفْرطاب تحت يدي الإفرنج ، تُنكر عليه فعله وتنهاه فلا ينتهي . فتفدّت أحضرت نسيباً لها من بعض الضياع ـ وأظنه أخاها ـ وأخفته في البيت إلى الليل ، واجتمعت هي وهو على زوجها ... قتلاه واحتملا بجمع مالها . وأصبحتْ عندنا بشيزر وقالت : غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فأراحت الناس من هذا الشيطان . ورعينا لها ما فعلت . وكانت عندنا في الكرامة والاحترام » .

وامرأة أخرى في شيزر ، دهم الافرنج المدينة في الليل وقد خرج عسكرها فتصايح الناس وخرجوا . يقول أسامة « وفي شيزر امرأة من نساء أصحابنا يقال لها نضرة بنت بوزرماط ، خرجت مع الناس أخذت إفرنجياً أدخلته بيتها ، وخرجت أخذت آخر أدخلته بيتها ، وعادت خرجت أخذت آخر ؛ فاجتمع عندها ثلاثة من الإفرنج ، فأخذت ما كان معهم وما صلُح لها من سلبهم ، وخرجت دعت قوماً من جيرانها قتلوهم » . وامرأة أخرى فضلت أن ترمي بنفسها في العاصي على أن تؤسر في أيدي الإفرنج . ودهم الإفرنج شيزر في يوم آخر ، ودلهم جاسوس على مخاضة في العاصي ، خاضوها و « ملكوا المدينة ـ فيما يقول أسامة ـ ونهبوا وسلبوا وقتلوا . ونفّذوا بعض السبي والنهب إلى أفاميَة وملكوا الدور . وعلّم كل واحد منهم صليبه على دار ، وركَز عليها رايته » . ثم طلع على الناس أبو أسامة وعمه ـ وكانا بعيدين عن المدينة ـ فكبَّر الناس وصاحوا . يقول أسامة : « فألقى الله سبحانه على الإفرنج الرعب والخذلان ، فذهلوا عن الموضع الذي عبروا منه ، ورمَوا خيلهم ، وهم بدروعهم عليها ، في غير مخاض ، فغرق منهم جماعة كثيرة . . . ومضى من سلِم منهم منهزمين لا يلوي بعضهم على بعض ، وهم في جمع كثير ، وأبي وعمي معهما عشرة مماليك صبيان ! » .

وقد رأى أسامة بعد المعركة رجلاً يخفي يده . فلما سئل أجاب : « تقابضْتُ أنا والإفرنجي ، وما معي عدّة ولا سيف ، فرميته ولكمت وجهه وعليه اللثام الزرد حتى أسكرته ، وأخذت سيفه قتلته به . وتهرّأ الجلد الذي على عُقَد أصابعي . وورِمت يدي فما تنفعني . وأظهر لنا يده وهي كما قال قد انكشفت عظام أصابعه » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وطلب الناس الشهادة وسعوا إليها آنذاك . يقول أسامة « ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يقاتلون ، للجنة لا لرغبة ولا لسمعة . ومن ذلك أن ملك الأمان الافرنجي (يريد ملك الألمان كنراد الثالث) لعنه الله ، لما وصل الشام اجتمع إليه كل من بالشام من الإفرنج . وقصد دمشق ، فخرج عسكر دمشق وأهلها لقتالهم ، وفي جملتهم الفقيه الفَنْدَلاوي . والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحولي رحمهما الله ، وكانا من خيار المسلمين . فلما قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمن ما هؤلاء الروم ؟ قال بلى . قال فإلى متى نحن وقوف ؟ قال سر على اسم الله تعالى . فتقدما قاتلا حتى قُتلا ، رحمهما الله ، في مكان واحد » .

ومثلها رجل يقال له حسن الزاهد ، دهم الإفرنج المسجد وهو واقف يصلّي ، والناس من بعيد يقولون « لا حول ولا قوة إلا بالله ! الساعة يقتلونه » يقول أسامة « فلا والله ما قطع صلاته ولا زال من مكانه . وعاد الإفرنج نزلوا ركبوا خيلهم وانصرفوا وهو واقف مكانه يصلي » .

ورجل يقال له نُمير العلاّروزي « نهض هو وقوم من رجال شيزر إلى الروج ، إلى الإفرنج ، فمشَروا في البلد على قافلة من الإفرنج في مغارة . فقال بعضهم لبعض من يدخل عليهم ؟ قال نمير أنا . فدفع إليهم سيفه وتُرسه ، وجذب سكينه ودخل عليهم . فاستقبله رجل منهم ، فضربه بالسكين رماه وبرك عليه يقتله ، وخلفه رجل إفرنجي معه سيف فضربه ، وعلى ظهر نمير مِزْود فيه خبز ، فهو يردّ عنه . فلما قتل الرجلَ الذي تحته التفت إلى صاحب السيف يريده ، فضربه (صاحب السيف) بالسيف في جانب وجهه فقطع حاجبه وجفن عينه وخدّه وأنفه وشفته العليا . فتدلى جانب وجهه على صدره . فخرج من المغارة إلى أصحابه فشدوا جرحه ، ورجعوا به في ليلة باردة ماطرة . فوصل شيزر وهو على تلك الحالة ، فخيّط وجهه وداوى جراحه ، فبَرأ وعاد إلى ما كان عليه ، إلا أن عينه تلِفت ... » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومثله جمعة النُّميري الذي يحدّث عنه أسامة ، فيقول : « شهدت يوماً وقد أغارت علينا خيل كَنَفْرطاب في قِلّة ، ففزِعنا إليهم طامعين فيهم لقلّتهم ؛ وقد كَمَنوا لنا كميناً في جماعة منهم ، وانهزم الذين أغاروا ، فتبعناهم حتى أبعدنا عن البلد . فخرج علينا الكمين ورجع إلينا الذين كنا نطردهم . فرأينا أننا إذا انهزمنا قَلَعونا كلَّنا فالتقيناهم مستقتلين . فنصر الله عليهم . فقلعْنا منهم ثمانية عشر فارساً . منهم من طُعن فمات ، ومنهم من طُعن فوقع وهو سالم . ومنهم من طُعن حصانه فهو راجل . فجذب الذين في الأرض منهم سالمون سيوفهم ووقفوا ، كلُّ من اجتاز بهم ضربوه . فاجتاز جمعة النميري ـ رحمه الله ـ بواحد منهم ، فخطا إليه (الإفرنجي) وضربه على رأسه ـ وعلى رأسه قَلَنْسُوة ـ فقطعها وشقّ جبهته وجرى منها الدم حتى نزح ، وبقيت مثل فم السمكة مفتوحة . فلقيتُه ونحن في ما نحن فيه من الافرنج ، فقلت له : يا أبا محمود ! ما تعصب جرحك ؟ فقال ما هذا وقت العصائب وشدّ الجراح ! . . . » .

وقد كان جمعة هذا يسابق أسامة إلى الهجوم على الإفرنج ، وهما اثنان وأولئك جمع ، دون أن يرتاع . وقد خرجا من إحدى المعارك مظفَرَيْن ، بعد أن دُقّت فخذ جمعة بالقِنطارية (نوع ثقيل من حديد الرماح ، فيما يبدو) فأشرفا على حصن يقف أمامه ثمانية من فرسان الإفرنج ، فقال له جمعة ـ وهو على حاله تلك ـ : « قف حتى أريك ما أصنع فيهم . قلت : ـ الكلام لأسامة ـ : ما هذا إنصاف ، بل نحمل عليهم أنا وأنت . قال سر ! فحملنا عليهم فهزمناهم ورجعنا ونحن نرى أنّا قد فعلنا شيئاً ما يقدر يفعله غيرنا ، نحن اثنان قد هزمنا ثمانية فرسان من الافرنج » .

وفارس آخر جبار الروح اسمه محمد بن سرايا ؛ طُعن بالقِنطارية في فخذه حتى نفذت فيها ، « فمسكها محمد ـ كما يقول أسامة ـ وهي في فخذه ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وجعل الإفرنجي يجذبها ليأخذها ، ومحمد يجذبها ليأخذها ، فترجع في فخذه ، حتى قوّرت فخذه ، واستلب القنطارية بعد أن أتلف فخذه ؛ ومات بعد يومين » .

ولم يُضع لصوص المسلمين أوقاتهم سدى ، فقد كانوا يغيرون على خيل الافرنج يتخطفونها في الليل . الزَّمَرْكَل واحد منهم ؛ كَمَنَ لخيل الافرنج في الظلام ؛ فرآه عم أسامة فسأله : « يا شيخ ! أي شيء تعمل هاهنا ؟ قال : انتظر الظلام وأسترزق الله تعالى من خيل هؤلاء الكفار ! قال : يا شيخ ! بأسنانك تقطع عن خيلهم ؟ قال : لا ، بهذه السكين . وجذب سكيناً من وسطه مشدودة بخيط ، مثلَ شعلة النار ، وهو بغير سراويل ! ... » .

وقد خاض الزَّمَرْكَل بعد هذا معركة فاز منها بالحصان والتُّرس والرمح ، بعد أن نفَذَت قنطارية خصمه في فخذه . وكان ـ فيما يقول أسامة ـ « يستقلّ بالطعنة التي فيه كأنها في سواه » !

★ ★ ★

هذه صور عارضة سريعة ـ استخلصناها من كتاب واحد ـ للمقاومة الضارية التي قابلنا بها الغزاة الإفرنج قبل ثمانية قرون . ما كنا لنقدر عليها ـ في رأينا ـ لولا أننا كنا نحس بالثقة والقوة والقدرة على فهم العصر وتقرير مصيرنا فيه بأيدينا ، فهذا الإحساس الغني القوي منحتنا إياه شخصيتنا الحضارية التي كانت لنا في عصور الحروب الصليبية وراثةَ القرون الخمسة السابقة التي كنا فيها سادةً في الحرب والسلم . ولو كنا نفقد هذا الإحساس آنذاك لاستحال علينا أن نقف على أقدامنا ، لأننا سنفقد بفقده الإحساس بالروابط التي تكوّن منا أمة موحدة متميزة لها خصائصها في الفكر والوجدان والعمل ، ولها تقاليدها وكرامتها ؛ فيستحيل علينا أن نجتمع حول الراية الواحدة التي رفعها صلاح الدين ، ونقاتل عنها في تضحية ومفاداة وقدرة على المكافحة الطويلة التي طالت قرنين من الزمان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهكذا نقول : إن الأمم تفترس في السلم حين تنفذ ذخيرتها الحضارية وتفقد شخصيتها قبل أن تفترس في الحرب . وهي حين يكون لها إحساسها الحضارى القوي قادرة على أن تفترس مفترسيها ، على نحو ما يشهد التاريخ مرات كثيرة .

وهذا هو المعنى الكبير لقولة إميل لودفيغ في الحروب الصليبية : « الواقع أن كل ما كسبته النصرانية (من هذه الحروب) هو تلك الكنوز من الفن والشعر والأغاني وأساطير المغامرين ، فشوكة الإسلام لم تكسر قط » .

— ٣ —

والذي أريد أن أقوله في كلمتين : هو أننا نقابل اليوم غزواً حضارياً قابلناه بالأمس . ومهما تعددت البواعث فيها فقد اتفقا في النهاية على ما تنتهي إليه غزوات التاريخ الحضارية القوية كلها : المُلك والسلطان . على أن هذين الغزوين تماثلا بواعث وأهدافاً ونتائج : فقد تستّر كلاهما بستارة الدين بعد أن جعلاه جنساً . وجاءا أرضاً واحدة مقدّسة في الديانات السماوية الثلاث التي يعرفها الانسان ، فإنّ قدسية بيت المقدس في الإسلام لا تقلّ عن قدسيته في المسيحية واليهودية . فلو تنازعنا حقوق الدين لثبت لنا مثل ما لأتباع الديانتين الأخريين فيها ، ولصحّ علينا ، حين تمتلكها إحداهما ، ما يصحّ عليها حين نمتلكها نحن . ولكن هذا الغزو ، حين تنكشح عنه رغوة الدين ، يبين على حقيقته : صراعاً حضارياً على المُلك ؛ فإن حقوق الديانات الثلاث محفوظة في الأرض المقدسة تحت سلطان أي أمة وقعت مها هزّتها أحداث التاريخ وملابساته العارضة .

وقد وقع الغزو الأول ونحن متفرقون كما نحن اليوم ، للخلل الذي أصاب سياستنا وإدارتنا ؛ فتحركت أمم أخرى لتسد هذا الخلل على مقتضى القواميس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التاريخية في كل زمن . ولكنا كنا آنذاك لم نفقد حقيقة إحساسنا بتفوقنا الحضاري واتضاح شخصيتنا الحضارية ، فما كاد مدّ الغزو ينتهي إلى نهاياته حتى جمعنا أنفسنا ، يحركنا الإرث الحضاري الضخم الذي يفعل فينا ، ويجمعنا على قيمه وأمجاده وتقاليده ؛ فحسرناه عن أرضنا ، ورددناه إلى البحر الذي جاء منه ، قاتلنا فيها ، على نحو ما صور أسامة في كتابه ، قتال السادة الذين يقدّرون هذه التبعات ، ويستبقون إلى حملها ، ويقاتلون ، وهم يشرفون على المغيرين من فوق معاقلهم ، معاقل الحضارة التي هم سادتها آنذاك وطلائع ركبها . فلذلك انتصروا وتغلبوا على التفكك والانقسام ، وخاضوا المعركة بصبر ، وخلقوا قيادات حية ناضجة مكافحة ، على مستوى المرحلة التاريخية التي يحملون هم تبعتها .

فاليوم يكرّ التاريخ بنا على أعقابه ، فنقف في الأرض نفسها نقابل أخلاف الغزاة الذين جاؤونا قبل ثمانية قرون ليبنوا في أرضنا المُلْك الحضاري الذي لم نمكنهم من بنائه آنذاك . وقد دارت بنا الأرض وأنهكتْنا تلك الحروب ، فنمنا نوماً طويلاً فقدنا خلاله إحساسنا الحضاري القوي الذي كان يمنحنا الثقة والقوة والإيمان والقدرة على تحمل تبعات النصر الثقيلة : التضحية بكل شيء ، والاستباق إلى الشهادة والمفاداة ؛ لأن روح الجماعة التي ننتسب إليها ما يزال حياً قادراً شاخصاً فينا ، يصهرنا فيه ويذيب فينا أوشاب الفردية والإقليمية والعرقية الضيقة .

فاليوم تبدلت بنا مواقعنا في المعركة ، بعد أن فقدنا هذا الإحساس الحضاري ، ففقدنا بفقده القدرة على المقاومة الحية الفاعلة المبصرة المنظمة المجتمعة على أهدافها الواضحة ، فأُصبنا بالاستعباد حين وقعنا فريسة الإحساس الآسر بالتخلف والعجز . فينبغي إذن وقد دهمنا الغزو في هذه المرحلة الخطيرة أن نوطّن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أنفسنا على تحمل مشقات كفاح طويل مزدوج ندافع فيه الغزو بيد ، ونبني باليد الأخري أنفسنا بناء منظماً حياً مفتوحاً على العصر وحضارته ، مشدوداً ، في الوقت نفسه ، إلى ماضينا وحضارتنا حتى لا ننقطع ونُمسخ ونفقد طعمنا الإنساني المميز ، ونعيش أبداً كالزوائد في حياة الإنسانية .

ولن يكون لنا ذلك حتى تكون لنا طليعة سليمة القلب والعقل ، لم يبلغ بها إحساسها القائم بالتخلف الحضاري في هذه المرحلة ، أن تدعونا إلى التعلق بالعربات السائرة بحجّة أنها عربات تسير ، وأن عرباتنا لا تسير ؛ طليعة قادرة على أن تقول لنا في صدق ووعي تاريخي معاصر عميق : من نحن حقاً ؟ وكيف تتحرك بنا عرباتنا حتى تسير ، وتسابق العربات السائرة ؟

فإذا تمّ لنا ذلك كله استعدنا إحساسنا الحضاري السليم ، فأصبحنا نحسّ أننا أبناء هذا العصر ، دون أن نفقد أنفسنا ؛ وانتفى عنا الشعور باليتم الحضاري الذي بدأ يلازمنا منذ أفلت زمام سياستنا من أيدينا .

وحينئذ يمكن أن تتبدل بنا مواقعنا في المعركة التي نخوضها ، لأننا نكون أصبحنا قادرين على أن نتغلب على عوامل الضعف والتخاذل والتفسخ والضياع الفكري والنفسي ، والغُربة عن أنفسنا وعن العصر الذي نعيش فيه .

وحينئذ نلقي على أعناقنا كل نير ، ونعلو على كل سلطان قاهر ، وتتحطم عن أيدينا الأغلال ، وعن أرجلنا السلاسل ، ونغدو في غنى عمّن يقنعنا بأننا أحرار ، لأننا نكون أحراراً حقا ، أحراراً من الداخل .

وحينئذ نجد أنفسنا قادرين على أن نصنع قدَرنا وقدَر الإنسانية معنا ، لأننا نحن وحدنا القادرون على أن ننتفع بتراثنا الحضاري العظيم وقيَمه الإنسانية الخالدة ، لأننا نحن وحدنا ورثتها الشرعيون .

وحتى تحين هذه الساعة لن نخرج من التيه .

عبد الكريم الأشتر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net